

قادة الفتح الاسلامى :

عبد الله بن عبد الملك بن مروان فاتح حصن سينان، وطرنده، والمصيصة، من بلاد الروم، وأمر مصر للموارىكى : محمود بيت خطاب

نسبه وايامه الاولى :

هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي (٤) أبوه: عبد الملك بن مروان بن الحكم أمير المؤمنين وأمه : من أمهات الأولاد (٥) ، ويريدون بتعبير أمهات الأولاد : الحواري والإماء اللواتي ولدت لمواليهن ذكرانا .

نشأ عبد الله وترعرع في ظروف ملائمة كل الملائمة لاستكمال مزاياه الشخصية ،

فأبوه خليفة من أبرز خلفاء بني أمية إن لم يكن أبرزهم كفاية وعلمًا وحزمًا وإدارة وسياسة وقيادة، وظروفه الإدارية والعسكرية لا تخلو من مشا كل صعبة تعين على التدريب النظري والتدريب العملي .

وكان التعاميم النظري لاستيعاب العلوم المتيسرة السائدة حينذاك ميسورا لهم ولغيرهم من الناس ، إذ كان العلماء والشيوخ وقتذاك يعتبرون التعليم من أجل العبادات .

والفرق الوحيد بين أبناء الخلفاء وغيرهم من

(١) حصن سينان : حصن في بلاد الروم ، انظر معجم البلدان (٣ - ٢٨٥) - (٥ - ١٤١) يرد ذكر لموقعه في المصادر الجغرافية القديمة المتيسرة لدينا، ومن دراسة اتجاه فتوح عبد الله بن عبد الملك نجد أن الحصن في منطقة (ملطية) .
(٢) طرنده : مدينة تبعد عن (ملطية) ثلاث مراحل داخلية في بلاد الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٦ - ٤٧) .

(٣) المصيصة : مدينة على شاطئ نهر (جيحان) من ثغور الشام ، بين (أنطاكية) وبلاد الروم وتقارب (طرسوس) ، وكانت ذات سور وخمسة أبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٨١٦٨٠) والمسالك والممالك (٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) .

(٤) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥ - ٣٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١ - ٢٠٩) جبهة أنساب العرب (٨٩) وفوات الوفيات (٢ - ٣١) وقادة فتح المغرب العربي (٢ - ٢٠٩) .

(٥) الطبري (٥ - ٤٢٠) وابن الأثير (٤ - ٥١٩) والنجوم الزاهرة (١ - ٢١١) .

الناس ، هو أن أبناء الخلفاء يتلقون العلوم على جهازة العلماء والشيوخ ، لذلك نشأ في عاصمة الخلافة (دمشق) ليتعلم علوم القرآن الكريم ويروى الحديث النبوى الشريف ويدرس التاريخ والسير وأيام العرب قبل الإسلام وبعده . ويتقن علوم اللغة صرفا ونحوا وبلاغة وعروضا ، ويتاق فنون الأدب الرفيع شعرا ونثرا ، ويتعلم الحساب والهندسة وتقويم البلدان ،

كما أن التدريب العملى بالممارسة كان ميسورا في الأمور السياسية فهو إلى جانب الخليفة المرجع الأعلى لتصريف تلك الأمور ، كما أنه إلى جانب الحاكمين من بنى أمية يرى ويسمع كيف تعطى القرارات الخطيرة وكيف تصرف أمور الدولة .

كما تدرب عمليا على الفنون العسكرية : ركوب الخيل ، والرماية بالسهم ، والضرب بالسيوف والظعن بالرمح ، والسباحة ، وتحمل المشاق سيرا على الأقدام إلى مسافات طويلة في أيام متعاقبة وفي ظروف جوية قاسية ، والحرمان من الطعام والشراب مدة مناسبة وتناول الطعام الخشن والماء العكر وهو ما نطلق عليه في التعابير العسكرية الحديثة : التدريب العنيف .

ولكن هذا التدريب العسكرى العملى لا يكتفى ، لأنه تدريب فردى ، فلا بد من تلقى التدريب الإجمالى ، وهو ممارسة الجهاد جنديا

وقائدا في ساحة القتال ، ليطبق ما تعلمه من فنون عملية فردا ، على القتال تطبيقا عمليا ، وهذا ما نطلق عليه اليوم : تطعيم المعركة ، إذ لا فائدة من التدريب الفردى إلا إذا طبق عمليا في التدريب الإجمالى وأفضل أنواع التدريب الإجمالى هو القتال الفعلى .

وكما تدرب على الفنون العسكرية العملية تدرب على الفنون العسكرية النظرية : أساليب القتال ، والقضايا التعبوية ، واختيار المعسكرات ، وطرق الدفاع والهجوم والانسحاب والمطاردة ، ومعالجة الأمور العسكرية في الميدان ، والقضايا الإدارية .

وقد طبق الفنون العسكرية النظرية عمليا في ميدان الجهاد ، وبذلك جمع التدريب الفنى النظرى والعملى ، ووضع معلوماته العسكرية في حيز التنفيذ .

وإلما مما زاد في فرص تعليم وتدريب عبد الله ، أنه تلقى علومه وتدريباته في كنف والده أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، بعد استقرار مآكله في الدولة الإسلامية واستعادة (الوحدة) الشاملة لهذه الدولة سنة ثلاث وسبعين هجرية (١) (٦٩٢ م) ، إذ قضى على الخوارج في (البحرين) ، وأعاد بناء (الكعبة) المشرفة بمكة المكرمة على ما كانت عليه قبل ثورة عبد الله بن الزبير العارمة ، فانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح وإعادة المناطق المفتوحة إلى

(١) انظر تفاصيل استعادة الوحدة الشاملة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربى (٢ - ١٠٩ - ١١٧)

الدولة والتي انتفضت في بلاد الروم وإيران وفارس والسند وإفريقية ، وكان ثمرات استعادة (الوحدة) الشاملة أن أعادت الدولة الإسلامية بقيادة عبد الملك بن مروان - بعد ما عاناه من فتن داخلية واضطرابات وحروب أهلية ومشاكل واعتداءات خارجية - كامل سيطرتها على مافتحه الخلفاء الأولون قبل عبد الملك ، وضم إلى الدولة فتوحا جديدة ، بعد ما كان عبد الملك يدفع الإناوة لإمبراطور (القسطنطينية) منذ توليه الخلافة إلى استعادة (الوحدة) الشاملة ، وكان يدفعها للروم أيام الفتن والحروب الداخلية والاضطرابات والمشاكل الأهلية^(١) .

والعائلية الكاملة قائدا وإداريا ، حتى توفي عبد الملك سنة ست وثمانين الهجرية^(٢) (٧٠٥ م) ، فأرسي عبد الملك أسس شخصية ابنه عبد الله على أسس رصينة ، تلك الأسس التي كانت عبارة عن : الدين والتفقه فيه والعربية وإتقان علومها ، والسياسة وممارسة قضايها ، والإدارة وحل مشاكلها ، والعسكرية والتدريب على متطلباتها ، وبذلك أصبح عبد الله قائدا متميزا وإداريا محنكا .

لقد تهيأ لعبد الله العلم المكتسب والتجربة العملية ، فأتت ثمراتها في مناصبه التي تولاهها قائدا وإداريا .

في توطيد الأمن الداخلي

كان من أهم واجبات الحجاج بن يوسف الثقفي بعد أن تولى (العراقين) : العراق والمشرق سنة خمس وسبعين هجرية^(٣) (٦٩٤ م) ، هو : القضاء على الفتن الداخلية في العراق وفي بلاد المشرق الإسلامي المفتوحة واستعادة البلاد المفتوحة التي انتفضت على الدولة الإسلامية ، وفتح بلاد جديدة .

ومضى الحجاج ينفذ هذه الواجبات بحزم وعزم وإقدام ، وكان (رتبيل) مصالحا يؤدي الخراج وربما امتنع منه^(٤)

وقد تربى عبد الله في كنف أبيه بعد استعادة (الوحدة) الشاملة للدولة الإسلامية في جو كله استقرار وأمن ودعة وبناء علمي وإداري وسياسي وعسكري ، في بداية العصر الذهبي لحكم بني أمية في (الشام) برعاية والده الحبيب العالم الأديب القائد الفاتح الداهية المتمرس ، فأفاد عبد الله من رعاية والده في وقت تفرغ فيه عبد الملك لرعاية شئونه الخاصة أكثر من السابق - يوم كان في دوامة الاضطرابات والقلق والمشاكل والفتن والحروب ، وبقى يحظى بالرعاية الأبوية

- (١) ابن خلدون (٣-١٥٢) ، وانظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (٢-١١٣-١١٤) .
 (٢) تاريخ بغداد (١٠-٢٩١) وتاريخ الخميس (٣-٣١١) والعبر (١-١٠٢) وشذرات الذهب (١-٩٧) والمعارف (٣٥٧) .
 (٣) العبر (١-٨٥) وشذرات الذهب (١-٨٣) .
 (٤) ابن الأثير (٤-٤٥٠) .

وسار عبد الرحمن على رأس جيشه ،
وأحرز نصرا مؤزرا على (رتبيل) ،
فكتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه وبما
يريد أن يعدل (٥) .

وهناك روايات أخرى في إرسال
عبد الرحمن ، لا مكان لها لأنها خارجة عن
نطاق الحديث عن سيرة عبد الله بن عبد الملك .

وكان عبد الرحمن يرى أن يتركوا
التوغل في بلاد (رتبيل) حتى يعرفوا
طريقها ويجبوا خراجها ، وكتب بمجمل
خطته هذه إلى الحجاج .

ولكن الحجاج رفض خطة عبد الرحمن
وأمر عبد الرحمن بالوغل في أرض
(رتبيل) وهدم حصونهم وقتل مقاتليهم
وسبي ذراريهم .

ودعا عبد الرحمن الناس وقال لهم :
أيها الناس « إني لكم ناصح ولصالحكم
محب ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر ،
وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي

فأراد الحجاج أن يصني الحساب جلدريا
بين الدولة وبين (رتبيل) ، فأمر وإلى
(سجستان) (١) ستة تسع وسبعين هجرية (٢)
(٦٥٨م) أن يفاخره ، ولكنه اندحر أمام
قواته متكبدا خسائر فادحة في الأرواح
والأموال (٣) .

ولم يكن الحجاج ليسكت على اندحار
قوة من قواته في إحدى الجبهات ، لذلك
عزم على أن يلحق (رتبيل) في عقر داره
درسا قاسيا لا ينساه أبدا ، فاستأذن
عبد الملك بن مروان في تسيير الجيوش إلى
(رتبيل) ، فلما أذن له بذلك ، عكف
الحجاج على تجهيز الجيش ، فجعل على أهل
(الكوفة) عشرين ألفا ، وعلى أهل (البصرة)
عشرين ألفا ، وجد في ذلك جدالاهوادة فيه ،
وأعطى الناس أعطياتهم كاملة ، وأنفق فيهم
ألفي ألف سوى أعطياتهم ، وأنجدهم بالخيول
الرائقة والسلاح الكامل ، وأعطى كل رجل
يوصف بشجاعة وغناء ، وأمر على الجيش
بعد الفراغ من إعداد عبد الرحمن بن
محمد بن الأشعث (٤) .

(١) سجستان : اسم منطقة واسعة بينها وبين (هراة) عشرة أيام أو ثمانون فرسخا ، وهي جنوبي (هراة) ،
انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ - ٢٧) ، وانظر حدودها في المسالك والممالك للاصطخرى (١٣٨) وفيه : أن
(سجستان) بفتح السين ، وانظر : آثار البلاد وأخبار العباد (٢٠١) .

(٢) الطبري (٦ - ٣٢٢) وابن الأثير (٤ - ٤٥٠) .

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦ - ٣٢٢ - ٣٢٤) وابن الأثير (٤ - ٤٥٠ - ٤٥١) .

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكندي ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٥) ،
وهو من أبطال العرب وأشرفهم وقادتهم وولاتهم .

(٥) انظر التفاصيل في الطبري (٦ - ٣٢٦ - ٣٢٩) وابن الأثير (٤ - ٤٥٤ - ٤٥٦) .

وكانت بيعته : نبايع على كتاب الله وسنة
نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى جهاد أهل
الضلالة وخلعهم وجهاد المحلين .

ولما بلغ الحجاج خاهه كتب إلى عبد الملك
بخبير عبد الرحمن ويسأله أن يعجل بعثة
الجنود إليه ، ثم سار الحجاج حتى نزل
(البصرة) .

وجهاز عبد الملك الجند إلى الحجاج ،
فسار الحجاج من (البصرة) إلى تستر^(٢)
وقدم بين يديه مقدمة إلى (دجيل)^(٣)
فلقي عنده خيلا لعبد الرحمن ، فانهزم
أصحاب الحجاج بعد قتال شديد ، وكان
ذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين
هجريه (٧٠٠ م) ٥

فلما أتى خبر الهزيمة الحجاج ، رجع
إلى (البصرة) ، ثم أقبل حتى نزل (الزاوية)^(٤)
وترك (البصرة) لأهل العراق ، وفرق
في الناس مئة وخمسين ألف درهم .

بما رضىه ذوو أحلامكم وأولئو التجربة منكم ،
وكتبت بذلك إلى أميركم الحجاج ، فأتاني
كتابه يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل
الولوغ بكم إلى أرض العدو ، وهى
البلاد التى هلك فيها إخوانكم بالأمس ،
ولنما أنا رجل منكم أمضى إذا مضيتم
وأتى إذا أتيتم .

وثار إليه الناس وقالوا : بل نأبى
على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع !!

ووثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه
على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق ،
وعلى النصرة له ، ولم يذكر عبد الملك .

وعاد عبد الرحمن إلى العراق بمن
معه ، فلما بلغ (فارس)^(١) اجتمع الناس
بعضهم ببعض وقالوا : إذا خلعتنا الحجاج
عامل عبد الملك ، فقد خاهنا عبد الملك ٥

واجتمعوا إلى عبد الرحمن وخلعوا
عبد الملك إلا قليلا منهم ، وبايعوا عبد الرحمن

(١) فارس : ولاية واسعة وإقليم فسيح ، أول حدودها من جهة للعراق (أرجان) - من جهة كرمان
(السيرجان) ، ومن جهة ساحل بحر الهند (سيراف) ، ومن جهة السند (مكران) وقصبتها (شيراز) ، وفى هذه
الولاية من أمهات المدن المشهورة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٦ - ٣٢٤) وتقويم البلدان (٣٢١ - ٣٣١)
والمسالك والممالك للاصطخرى (٦٧ - ٨٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٤١ ، ٤٢) ومختصر كتاب البلدان
(١٩٥ - ٢٠٥) والاعلاق النفيسة (١٠٦) وأحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (٤٢٠ - ٤٥٩) وكتاب صورة الأرض
(٣٣٤ - ٢٧٣) .

(٢) تستر : أعظم مدينة بخوزستان ، وهى تعريب شوشتر ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢ - ٣٨٦)
المسالك والممالك للاصطخرى (٦٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٧٠) .

(٣) دجيل : نهر بالأهواز ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤ - ٤١ - ٤٢) .

(٤) الزاوية : موضع قرب البصرة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤ - ٣٧١) .

وأقبل عبد الرحمن حتى دخل (البصرة)
فبايعه جميع أهلها : قراؤها وكهولها
على قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام. (١)

وخسر عبد الرحمن معركة (الزاوية)
فقصده (الكوفة) ، واستقر بها ، فاجتمع
إليه الناس ، وقصده أهل البصرة .

وسار الحجاج من (البصرة) إلى (الكوفة)
لقتال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
فتزل (ديرقره) (٢) ، وخرج عبد الرحمن
من (الكوفة) ، فتزل (دير الجماجم) (٣) .

وتفانم أمر عبد الرحمن واستشرى
خطره ، فقال عبد الملك بن مروان وأهل
(الشام) : إن كان يرضى أهل العراق
نزع الحجاج عنهم نزعناه ، فإن عزله أيسر
من حربهم ، ونحقن بذلك الدماء ، فبعث
عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن
مروان بن الحكم ، وكان محمد بأرض
(الموصل) ، إلى الحجاج في جند
كثيف ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق
عزل الحجاج وأن يجريا عليهم أعطياتهم
كما تجرى على أهل (الشام) ، وأن ينزل
عبد الرحمن بن محمد أى بلد شاء من
بلد العراق ، فإذا نزل كان واليا عليه

مادام حيا وعبد الملك خليفة ، فإن أجاب
أهل العراق إلى ذلك عزلا الحجاج عنها
وصار محمد بن مروان أمير العراق ، وإن
أبى أهل العراق قبول ذلك ، فالحجاج
أمير الجماعة ووالى القتال ، ومحمد بن
مروان وعبد الله بن عبد الملك فى طاعته .

وحاول الحجاج أن يعيد عبد الملك
ابن مروان النظر فى أمر عزله ، فأبى
عبد الملك إلا عرض عزله على أهل العراق .
وخرج عبد الله بن عبد الملك إلى جموع
أهل العراق وعلى رأسهم عبد الرحمن بن
محمد ابن الأشعث فقال : « يا أهل العراق
أنا ابن أمير المؤمنين ، وهو يعطيكم كذا
وكذا .. »

وخرج محمد بن مروان فقال : « أنا
رسول أمير المؤمنين ، وهو يعرض عليكم
كذا وكذا .. »

فقال أهل العراق : نرجع العشية .
 واجتمع أهل العراق عند ابن الأشعث
فقال لهم : قد أعطيتم أمرا ، انتهزكم اليوم
إياه فرصة ، وأنكم اليوم على النصف ، فإن
كانوا اعتدوا عليكم يوم (الزاوية) ، فأنتم
تعتدون عليهم بيوم (تستر) ، فاقبلوا

(١) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦ - ٣٣٤ - ٣٤١) وابن الأثير (٤ - ٤٦١ - ٤٦٦)

(٢) ديرقره : ديربازاء الجماجم ، وهو ملاصق لطرف البر ، ودير الجماجم مما يلى الكوفة ، انظر التفاصيل
فى معجم البلدان (٤ - ١٦٢) .

(٣) دير الجماجم : دير بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها ، على طرف البر للسالك إلى البصرة ، انظر التفاصيل
فى معجم البلدان (٤ - ١٣١ - ١٣٢) .

ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء
لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون
فوالله لازلتم عليهم جراء وعندهم أعزاء
أبدا ما بقيتم .

ووثب الناس من كل جانب ، فقالوا :
إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك
والجماعة والقلة والذلة ، ونحن ذوو العدد
الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة ،
لا والله لا نقبل !

وأعاد أهل العراق خلع عبد الملك ثانية
فقال عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن
مروان للحجاج : « شأئك بعسكرك وجندك ،
واعمل برأيك ، فإننا قد أمرنا أن نسمع
لك ونطيع » فقال : « قد قلت إنه لا يراد
بهذا الأمر غيركم » فكانا يسلمان عليه
بالأمر ويسلم عليهما بالأمرة أيضا .

وجعل كل من الحجاج وابن الأشعث
قواته على تعبئة : ميمنة وميسرة ،
والخيالة ، والرجالة ، والقلب ، وجعلا
على كل تشكيل من تشكيلات القتال
قائدا مسئولا ، وجعل ابن الأشعث على
القراء - وهم علماء المسلمين وفقهائهم
ومحدثوهم - قائدا .

وأخذ الطرفان يتزاحقان كل يوم
ويقتتلان ، وأهل العراق تأتيهم موادهم

التدوينية من (الكوفة) وسوادها ، وهم
في خصب ، وأهل الشام في ضنك شديد
قد غلت عليهم الأسعار ، فقد عندهم
اللحم كأنهم في حصار .

وكان أشد الناس ثباتا واستبسالا القراء
من أصحاب الأشعث ، وكانوا قد ألفوا
كتيبة منهم هي القراء ، فعبا الحجاج
لكتيبة القراء ثلاث كتائب ، فحملوا
على القراء ثلاث حملات : كل كتيبة
تحمل حملة ، فلم يبرحوا وصبروا ،
وحملوا على كتائب الحجاج حتى أزالوها
وفرقوها ، ثم تقدموا حتى واقعوا صفهم
فأزالوه .

واستمر الاقتتال بين الإخوة مئة وثلاثة
أيام ، فقد كان نزول عبد الرحمن بن
محمد بن الأشعث (دير الجماجم) لثلاث
مضين من ربيع الأول، وكانت الهزيمة لأربع
عشرة مضين من جمادى الآخرة ، حيث
انتصر الحجاج على ابن الأشعث بعد قتال
مرير^(١) .

وعاد محمد بن مروان إلى (الموصل)
وعاد عبد الله بن عبد الملك إلى (الشام)
ورجع الحجاج إلى (الكوفة) .

وأقى عبد الرحمن (البصرة) فاجتمع
إليه من المنهزمين جمع كثير ، وبايعه خلق

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦ - ٣٤٢ - ٣٥٠) وابن الأثير (٤ - ٤٦٧ - ٤٧٢) ، وانظر ابن
خلدون (٣ - ١١٠) والبدء والتاريخ (٦ - ٣٦) والتنبية والاشراف (٢٧٢) .

كثير على الموت، فاجتمعوا : (مسكن) (١)
ولكن قواته انهزمت أمام قوات الحجاج (٢).

وبدأت مطاردة قوات الحجاج لفلول
ابن الأشعث ، فقاتلت قوات ابن الأشعث
في انسحابها بمواضع كثيرة ، حتى وصل
ابن الأشعث (رتبيل) (٣) ، وأخيرا
مات أو قتل في اختلاف كثير بالروايات
فانتهت حروب داخلية طاحنة ، تكبد
فيها الطرفان خسائر لا تعد ولا تحصى . (٤)

وقضى ابن الأشعث نحبه سنة خمس
وثمانين هجرية (٥) (٧٠٤م) .

وكانت عودة عبد الله بن عبد الملك إلى
(الشام) بعد انتصار الحجاج على ابن
الأشعث في معركة (دير الجماجم) الحاسمة
سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م) وكان
قد قدم إلى العراق سنة اثنتين وثمانين
الهجرية (٧٠١م) .

ولست بصدد البحث عن أسباب ثورة
ابن الأشعث ، ولا بصدد الحديث في
أسباب تهافت أهل العراق على الإقبال
عليها والمشاركة فيها ، ولا بصدد تعداد

نتائجها القريبة والبعيدة وأثرها في الدولة ،
ولابصدد إبراز أسباب انتصار الحجاج
على ابن الأشعث ، فكان كل هذه الدراسات
والبحوث في الحديث عن هذا الاقتتال
بين الأخوة ، مما أدى إلى تعميق
العداوة بين القبائل العربية التي كانت مادة
الفتح وأساسه . وعجل في نهاية بني أمية
وتغلب العنصر الأعجمي على العنصر العربي .
ولكن ما أردته من إبراز أهم معالم
هذه الثورة ، هو إظهار أثر عبد الله بن
عبد الملك فيها ، وتأثيرها فيه .

وهدف من تسليط الأضواء على أهم معالم
الاقتتال بين الأخوة في هذه الثورة ، هو
إظهار أهمية الواجب الذي حمّله عبد الله
في تلك الأيام العصيبة التي كادت تعصف
بالدولة عصفا .

إن عبد الله لم يكن قائدا مشغولا في
المعارك التي خاضها الحجاج ، ولكن الحجاج
لا يغفل عبد الله في مجال الرأي وسم
الخطط ودعم القوات ماديا ومعنويا .

أما الدعم المادي ، فمن الواضح أن
عبد الملك حشد طاقاته المادية لاحتراز النصر ،

(١) مسكن : موضع قريب من (أوانا) على نهر (دجيل) عند دير (الخالتيق) ، انظر التفاصيل في معجم
البلدان (٨ - ٥٤) ، وأوانا : بليدة من نواحي (دجيل) بغداد بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، انظر التفاصيل في
معجم البلدان (١ - ٣٦٦) ، أقول : وهي بالقرب من (سيكة) أو (الدجيل الحالية) ، والمكان معروف .

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦ - ٣٦٦) وابن الأثير (٤ - ٤٨٢ - ٤٨٣) .

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦ - ٣٦٧ - ٣٨٣) وابن الأثير (٤ - ٤٨٤ - ٤٩٤) .

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦ - ٣٨٩ - ٣٩٣) وابن الأثير (٤ - ٥٠١ - ٥٠٢) .

(٥) الطبري (٦ - ٣٨٩) وابن الأثير (٤ - ٥٠١) .

وقد كان للمال وهو عصب الحرب أثر حاسم في هذا النصر، لأن أكثر المقتتلين من الطرفين كان يهتم بمتطلبات جيبه أكثر من اهتمامه بمتطلبات قلبه .

أما الدعم المعنوي ، فوجود ابن الخليفة بين المقتتلين يؤثر في المعنويات تأثيرا كبيرا : يرفع معنويات الحجاج وقواته ، ويزعزع معنويات ابن الأشعث ورجاله .

وكما أثر عبد الله في المعارك ونتائجها ، فقد أثرت فيه شخصيا : أغنت تجاربه في القيادة وإدارة القتال وفي معرفة الطبيعة البشرية للمقاتلين ومعرفة طاقاتهم وكفائاتهم كما وضعت معلوماته العسكرية في محك التطبيق العملي ، وجعلته يعيش المعارك بما فيها من صعوبات ومشاق ومآس ، وهو مانطلق عليه اليوم في المصطلحات العسكرية الحديثة تطعيم المعركة .

في ميدان الجهاد

١- في سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، غزا عبد الله بلاد الروم ،

ففتح حصن (سنان) من ناحية (المصيصة)^(١) .

والظاهر أن عبد الله شهد هذه الغزوة قبل أن يرحل إلى العراق لخوض معركة (دير الحجاج) ، ورحل بعد ذلك إلى الحجاج ابن يوسف الثقفي في العراق للسفارة بين عبد الملك بن مروان وأهل العراق ، كما ذكرنا ذلك .

٢- وفي سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م) غزا عبد الله بلاد الروم ، ففتح (طرندة)^(٢) .

وقد قاتل عبد الله الروم بـ (سورية)^(٣) و (لؤلؤة)^(٤) ، فهزمهم^(٥) .

والظاهر أن عبد الله غزا الروم بعد عودته من العراق .

وقد أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بالقول من (طرندة) سنة مئة الهجرية (٧١٨م) لأنها واغلة في البلاد الرومية من (ملطية)^(٦) بثلاث مراحل

(١) تاريخ ابن خياط (١-٢٨٩) وانظر معجم البلدان (٣-٢٨٥) و (٥-١٤١) .

(٢) ابن الأثير (٥-٥٤) وانظر معجم البلدان (٦-٤٦) .

(٣) سورية : موضع بالشام بين (خنصرة) و (سلمية) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥-١٧١) .

(٤) لؤلؤة : قلعة قرب (طرسوس) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧-٣٤٣) .

(٥) تاريخ ابن خياط (١-٢٩٠) .

(٦) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة ، تتاخم بلاد الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان

(٨-١٥٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) والمسالك والممالك لابن خردادبة (٩٧) والبلدان لابن الفقيه (٢٥) وتقويم البلدان (٣٨٤) .

وكان عبد الله قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م) (ملطية) يومئذ خراب ، وكان أهل (طرندة) يأتهم جند من (الجزيرة) يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم فلم يزلوا كذلك إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز ، فأمرهم بالعودة إلى (ملطية) وأخلى (طرندة) خوفا على المسلمين من العدو ، وخربوا (طرندة) (١١) .

وكان قرار عمر بن عبد العزيز رضى عنه في انسحاب أهل (طرندة) منها إلى (ملطية) صائبا ، لأن (طرندة) أصبحت معزولة عن القواعد المتقدمة للمسلمين فليس من المستبعد أن يباغتها الروم بالهجوم عليها وإبادة سكانها ، خاصة وأن الروم ارتفعت معنوياتهم بعد انسحاب المسلمين من (القسطنطينية) . كما أصبحت للروم قيادة قوية حازمة بعد تولى (ليوم) عرش الروم (٢٢) .

٣- وفي سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣) غزا عبد الله بلاد الروم ، ففتح (المصيصة) (٢٣) فبناها (٢٤) وبني حصنها على

أساسه القديم ، ووضع بها سكانا من الجند ، فيهم ثلاثمائة رجل انتخبهم من ذوى البأس والنجدة المعروفين ، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك ، وبني فيها مسجدا فوق تل الحصن (٥) . ثم سار في جيشه حتى غزا حصن (سنان) ففتحه ، كما وجه قسما من قواته فأغارت ثم عادت إليه (٦) .

والذى يبدو أن حصن (سنان) الذى فتحه عبد الله سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) انتفض : فأعاد فتحه ثانية .

وهذا يدل على أن الحدود الشمالية الغربية المتاخمة لبلاد الروم لم تكن حدودا آمنة ، وأن الروم كانوا يستعيدون الأماكن المفتوحة إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فحصن (المصيصة) وحشد فيها الجنود واختار الشجعان منهم للدفاع عنها ، لكي تكون قاعدة متقدمة آمنة ، تصد هجمات الروم وتقوى على مصاولتهم ، ولتكون منطلقا قويا وقاعدة رصينة للفتاحين .

وقد دخل عبد الله من درب (أنطاكية) (٢٧) حتى أتى (المصيصة) (٢٨) .

(١) ابن الأثير (٥٤-٥) وانظر معجم البلدان (٤٦-٤٥)

(٢) انظر التفاصيل عن الانسحاب من (القسطنطينية) في سيرة مسلمة بن عبد الملك بن مروان .

(٣) الطبرى (٣٨٥-٦) وابن الأثير (٤-٥٠٠) والنجوم الزاهرة (١-٢٠٧) والبلاذرى (٢٢٥-٢٢٦)

(٤) ابن الأثير (٤-٥٠٠) وتاريخ ابن خياط (١-٣٩٢) .

(٥) البلاذرى (٢٢٥-٢٢٦) وابن الأثير (٤-٥٠٠) .

(٦) البلاذرى (٢٢٦) .

(٧) أنطاكية : مدينة عظيمة من أعيان المدن على طرف بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ولها قلعة عالية

جدا تتبين من بعد بعيد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٥٣) وآثار العباد (١٥٠) وتقويم البلدان (٢٥٦-٢٥٧)

(٨) البلاذرى (٢٢٥) .

٤ - ومن المعلوم أن منطقة (المصيصة)
 فتحت أيام عمر بن الخطاب رضى الله
 عنه بقيادة أبي عبيدة بن الجراح^(١) رضى
 الله عنه ، ولكن الفتن الداخلية التى استعرت
 بعد عمر بن الخطاب ، جعل الروم يستعيدونها
 ولما استقرت الأمور فى أيام معاوية بن أبى
 سفيان أعاد تلك المنطقة إلى المسلمين ، ولكن
 الروم استعادوها ثانية بعد معاوية لانشغال
 المسلمين بالقتال فيما بينهم ، حتى تولى
 عبد الملك بن مروان ، فأعادها إلى سيطرة
 المسلمين على يد ابنه عبد الله وبنائها وحصنها ،
 فكان أول من حصن (المصيصة) فى الإسلام ،
 وذلك فى سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣ م) ،
 وقد تم بناؤها وشحنها بالرجال وما يحتاجون
 إليه من قضايا إدارية : تموين ، إعاشة ،
 أساحة ، خيل ، نقلية ، سنة خمس وثمانين
 الهجرية (٧٠٤ م) ، فكانت الطوالع
 تطاع عليها كل عام من (انطاكية)
 فتشتوا بها ثم تنصرف بعد خروج الصوائف ،
 وعدة من كان يطلع إليها ألف وخمسمائة إلى
 الألفين وشخص عمر بن عبد العزيز رضى الله
 عنه إلى (المصيصة) ، فأراد هدمها وسحب
 حاميتها منها ، كما أراد هدم الحصون
 بينها وبين (انطاكية) قائلا : « أكره أن
 يحاصر الروم أهلها » ، فأعلمه الناس أنها
 إنما عمرت ليدفع من بها الروم عن (انطاكية)

فأمسك عن هدمها وبنى لأهلها مسجدا واتخذ
 فيه صهيحجا ، وكان اسمه مكتوبا عليه ،
 وهو يدعى : « مسجد الحصن^(٢) » .

وهكذا أصبحت (المصيصة) القاعدة
 المتبقية للمسلمين فى بلاد الروم ، كما
 أصبحت الخط الدفاعى الأمامى عن (انطاكية)
 وكان الفضل فى جعل (المصيصة) ذات
 أهمية خاصة فى الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية
 وقاعدة متقدمة للفتح يرجع لعبد الملك بن
 مروان وابنه عبد الله الذى أعاد فتحها بعد أن
 استعادها الروم ، وكان فاتحها الأول
 أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، ولكنه
 لم يكن فتحاً مستداما ، فجعله عبد الله
 فتحاً مستداما .

وكما كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه
 قد مهد للعصر الذهبى الأول للفتح الإسلامى
 الذى جرى فى عهد عمر بن الخطاب رضى
 الله عنه ، كان عبد الملك قد مهد للعصر
 الذهبى الثانى للفتح الإسلامى فى عهد الوليد
 ابن عبد الملك .

وكان عبد الله من أعوان أبيه فى التمهيد
 لانطلاقة العصر الذهبى الثانى للفتح الإسلامى .

الإنسان

تولى عبد الله مدينة (حمص) لأبيه
 عبد الملك بن مروان^(٣) ، وقد انفرد ابن

(١) انظر سيرته فى كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٥٤ / ٨١)

(٢) البلاذرى (٢٢٦)

(٣) تاريخ ابن خياط (١ - ٣٠١)

وقيل : من سنة ست وثمانين الهجرية^(٣) (٧٠٥ م) وأرجح أنه دخل (مصر) في جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين الهجرية ، لأن أمير (مصر) السابق عبد العزيز بن مروان اتوفى في جمادى الأولى سنة خمس وثمانين الهجرية ، وليس من المعقول أن يتأخر وصول عبد الله إلى (مصر) سنة وشهرا ، إذ لا مسوغ لهذا التأخير وبخاصة وأن عبد الملك لم يكن مرتاحا من حكم أخيه عبد العزيز لمصر ، وكان يحاول خلععه من ولاية العهد ويباع ابنه الوليد بن عبد الملك ، ولكن المنية عاجلت أخاه قبل أن يمضى قدما في تنفيذ خطة خلع^(٤) .

وكان عبد الملك قد أمر ابنه عبد الله أن يعنى آثار سلفه عبد العزيز بن مروان ، فاستبدل عبد الله عمالا من الأصحاب بعمال عبد العزيز ، واستبدل قضاة جددا بقضاة عبد العزيز ومنع من لبس البرانس^(٥) ، وكانت فيه شدة وبأس^(٦) .

خياط في تاريخه بذكر هذه التولية ، دون أن يذكر تاريخ تسلمه هذا المنصب ، وتاريخ تخليه عنه ، والذي يبدو أنه تولى هذا المنصب سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) وهى السنة التى تولى فيها قيادة جيش من جيوش المسلمين لحرب الروم ، وكان الولاة يتولون الغزو فى مناطقهم أو فى الحملات التى تحمى مناطقهم أو فى غزوات فتح البلاد التى تجاورهم ، وقد كان جند (حمص) من أهم جنود الشام ، فمن المحتمل أنه تولى قيادة جيش (حمص) فى غزواته التى بدأت سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) وانتهت سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣ م) ، باعتباره واليا على (حمص) .

وفى سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) ولاه أبوه عبد الملك بن مروان (مصر)^(١) على صلاتها وخراجها^(٢) ، فدخلها يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م)

(١) الطبرى (٦ / ٤٣٠) والنجوم الزاهرة (١ / ٢١٠) وابن خلدون (٣ / ٢٩٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١ / ٣٠٠) .

(٢) الولاة والقضاة (٥٨) .

(٣) النجوم الزاهرة (١ / ٢١٠) ، أما فى الولاة والقضاة ، فذكر أنه دخل مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين الهجرية انظر الولاة والقضاة (٥٨) .

(٤) الطبرى (٦ / ٤١٣) وابن الأثير (٤ / ٥١٣) والبداية والنهاية (٩ / ٥٧) وابن خلدون (٣ / ١٢٦) والنجوم الزاهرة (١ / ١٧٣) .

(٥) البرانس : ج برنس : قلنسوة طويلة ، كان النساك يلبسونها فى صدر الإسلام ، والقلنسوة تلبس فى الرأس انظر الافصاح (١ / ٣٧٦) وانظر معجم متن اللغة (١ / ٢٨٤) والوسيط (١ / ٥٢) .

(٦) النجوم الزاهرة (١ / ٢١٠) وانظر الولاة والقضاة (٥٨) .

الذى بالظاهر : قبله الطريق الأعظم إلى المسجد الجامع ، وبحريه الطريق الذى تسلك إلى سوق بربر ، وشرقيه السوق التى يقال لها سوق (مسجد عبد الله) على طريق (الموقف) ، وغريبه الطريق الذى يسلك منه على الحب الذى يقال له : (جب عبد الله) . . . (٤) ، وذكرت تفاصيل وثيقة هذا المسجد للدلالة عن موقعه بدقة فى مدينة (القاهرة) .

كما أمر عبد الله بسقف المسجد الجامع أن يرفع سمكه ، وكان سقفه مطأطأ وذلك سنة تسع وثمانين الهجرية (٥) (٧٠٧ م) .

ووقعت سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٥ م) بمصر (الشرقي) (٦) ، فغلت الأسعار بها إلى الغاية ، حتى قيل : أن أهل (مصر) لم يروا فى عمرهم مثل تلك الأيام ، وقاست أهل (مصر) شدائد بسبب الغلاء ، فاستشأم الناس بكعبه ، وزعموا أنه جائر وأنه ارتشى (٧) .

وتوفى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة ست وثمانين الهجرية (١) (٧٠٥ م) ، وبويع ابنه الوليد بن عبد الملك ، فأقر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها ، وأمر عبد الله بالدواوين ، فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عن الديوان صاحبه القبطى وولاه عربيا من أهل (حمص) وذلك سنة سبع وثمانين الهجرية (٢) (٧٠٦ م) ، وابتنى عبد الله المسجد المعروف بمسجد عبد الله (٣) وكان موضع هذا المسجد يجلس فيه أهل المدينة يتحدثون فيه ، فمر بهم يوما عبد الله وهو أميرهم بمصر ، فسألوه أن يبنى لهم فيه مسجدا ، وشكوا إليه ما يلقون من الشمس ، فبناه لهم ، فكانوا يجتمعون فيه . وجعلت له حوانيت غلة له ، وكتب القاضى وثيقة بنائه وهى : « بسم الله الرحمن الرحيم » هذا كتاب أمر به القاضى عبد الرحمن بن عبد الله (٤) وهو يومئذ (مسجد عبد الله)

(١) الولاة والقضاة وانظر العبر (١ - ١٠٢) والبداية والنهاية (٩ / ٦١) . وشذرات الذهب (١ / ٩٧)

(٢) الولاة والقضاة (٥٨ - ٥٩) .

(٣) انظر سيرته فى الولاة والقضاة (٤٠٦ / ٤١١) .

(٤) انظر التفاصيل فى : الولاة والقضاة (٧٠٢ / ٧١٠) ، ويراجع كتاب : الانتصار لواسطة عقد الأمصار حول المسجد الجامع (٥٩ / ٧١) ، وسوق بربر (٣٢) ، الموقف (٣٤)

(٥) انظر التفاصيل فى : الولاة والقضاة (٥٨ / ٦٠) ، وانظر ما جاء عن تعمير المسجد الجامع فى : الانتصار لواسطة عقد الأمصار (٦٣)

(٦) الشرقي : (فى كلام أهل مصر) : الأرض التى لم يصلها ماء النيل ، فإذا رويت جادت ، وسميت : رى الشرقي ، انظر معجم الوسيط (١ / ٤٨٠)

(٧) النجوم الزاهرة (١ / ٢١١) والولاة والقضاة (٥٨ / ٥٩) .

تصرف أمورهم وقد كان عبد الله : فيه
شدة وبأس (٢).

أما اتهمه بالرشوة ، فيبدو أنها تهمة
تبعية لاتهامه بالظلم ، إذ أن أبناء الخلفاء
وإخوتهم لا يحاسبون على الخراج من الخلفاء ،
فلم يحاسب عبد العزيز بن مروان على خراج
مصر ، ولم يحاسب مسلمة بن عبد الملك على
الخراج ، فإذا كان خراج مصر كله بسيطرة
عبد الله ، وهو خراج ضخم بدون شك ،
فلماذا يلجأ عبد الله إلى تقاضى الرشوة ؟

إن اتهم عبد الله بالرشوة تشنيع من
المصريين الذين اجتاحتهم الغلاء ، وعوملوا
بشدة وبأس ، فنفسوا عن أنفسهم بالتشنيعات
والهجاء (٣) والافتراء ، وبالنكت القاسية
قبل كل ذلك وبعده أيضا .

ولا يمكن أن يرتشى من بيده خراج مصر ،
يتصرف به كيف يشاء .

ولكن الوليد بن عبد الملك عزل أخاه
عبد الله سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) عن
مصر (٤) لاعن ريبة ولكنه أراد أن يولى من
يستطيع السيطرة عليه بسهولة وبسر .

والظاهر أن عبد الله سيطر على الخراج
سيطرة كاملة ، وحجب تدفقه إلى بيت

ولما شاع ذلك عنه ، طلبه أخوه الوليد
ابن عبد الملك من مصر ، فخرج عبد الله
واستخلف على عمله ، وكان أهل (مصر)
في شدة عظيمة من عظم الغلاء ، فأقام عند
الوليد مدة يسيرة ثم عاد إلى مصر (١) .

ومن الواضح أن الوليد جاب أخاه
عبد الله على ما أشيع عنه الظلم ، والرشوة ،
ويبدو أنه خرج بريئا ، ناصع الحبين من
ذلك الحساب ، فأعاده الوليد إلى عمله ثانية .

والمعروف عن المصريين منذ القدم حتى
اليوم ، أنهم قد يصبرون على كل شيء إلا
الغلاء ، وهم يغضبون إذا اجتاحتهم الغلاء ،
ويتصدون لمن يظنون أنه سببه بكل قوة
وشجاعة ، وهذا يفسر لنا أسباب تدميرهم
من عبد الله حين ارتفعت أسعار المواد
الغذائية ولم يكن لعبد الله ذنب مباشر أو غير
مباشر في الغلاء ، إذ لاحيلة له في قلة مياه
نهر النيل ، ولا يستطيع أن يفعل شيئا في
زيادة تدفق المياه أو نقصها ، ولا يستطيع غيره
أن يفعل شيئا .

كما أن المعروف عن المصريين قديما
وحديثا ، أنهم يرمون كل حاكم من
حكامهم بالظلم إذا اتسم بالشدة والبأس في

(١) النجوم الزاهرة (١ / ٢١١) وانظر الولاة والقضاة (٥٩)

(٢) النجوم الزاهرة (١ / ٢١٠) .

(٣) انظر هجاء شعراً في : الولاة والقضاة (٥٩ / ٦٠) .

(٤) ابن الأثير (٤ / ٥٤٧) والنجوم الزاهرة (١ / ٢١١) والولاة والقضاة (٦٤)

المال في العاصمة (دمشق) ، لذلك عزله الوليد بعد أن نفذ صبره ، وأوصى خلف عبد الله على (مصر) أن يختم على الدواوين وبيت المال (١) ، الحسابات ومقارنة الواردات بالنفقات ، لمعرفة ما يمكن أن يكون احتجزه عبد الله من المال لنفسه .

ويبدو أن تدقيق الحسابات ، أثبت أن عبد الله استأثر بقسم من المال لنفسه ، فلما عاد من (مصر) إلى أخيه الوليد في (دمشق) بعد أن استصحب جميع أمواله أحيط به في (الأردن) في طريق عودته وأخذت جميع أمواله ، وحمل عبد الله إلى أخيه الوليد في (دمشق) (٢) .

ولاندرى هل استعاد عبد الله أمواله ، أم ضمت إلى بيت المال في (دمشق) فقد سكت المؤرخون عن ذلك .

وقد كان خراج (مصر) الغنية هو المعين الوحيد لعمليات فتح شمالي (أفريقية) ، كما كانت (مصر) هي القاعدة الأمامية لفتح شمالي (أفريقية) وتوطيد أركان الفتح فيها ، واستكمال فتحها لتكون المنطلق لفتح الأندلس وأوربا ، فلا بد من سيطرة الخليفة على

خراج (مصر) بالذات ثانيا ، ليتصرف الخليفة بالخراج ليكون عصب الفتح ، ولا يتم ذلك إلا بفرض سيطرته الكاملة على الخراج ، ولا بد له من السيطرة الكاملة على (مصر) ، لتسخير كل طاقتها المالية والبشرية للفتح ، وهذه السيطرة على الخراج وعلى البلاد لا تتم كما ينبغي بوجود أمير عليها يعتبر نفسه ندا للخليفة وصنوا له .

وقد كان على (أفريقية) موسى بن نصير اللخمي (٣) لعبد الملك بن مروان من سنة تسع الهجرية (٤) (٦٩٨ م) ، وكان على علاقة وثيقة بعبد العزيز بن مروان سلف عبد الله ابن عبد الملك ، ولكنه لم يكن كذلك مع عبد الله الذي خلف على (مصر) عمه عبد العزيز ابن مروان ، فقد كان موسى بن نصير يكاتب عبد العزيز بن مروان ، فلما توفاه الله ولي عبد الملك ابنه عبد الله على (مصر) ، فلم يكاتبه موسى وكاتب عبد الملك مباشرة فكتب إليه عبد الله : « أما بعد . فإنك كنت من عبد العزيز وبشر (٥) مهادين (٦) تعلق عن الحضيض مهودهما (٧) ويدفئك دثارهما ، حتى عفا (٨) مخبرك وسميت بك نفسك ، فلا تحسبني كمن كنت تخليه وأعداء بيته وتقول : أكفاني

(١) الولاة والقضاة (٦٢)

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (١ / ٢٢١ - ٣٠٩)

(٣) تاريخ ابن خياط (١ / ٣٠٠) . (٤) الولاة والقضاة (٢٠)

(٥) بشر بن مروان ابن الحكم .

(٦) المهاد : الفراش . ومهاد الأرض : المستوية .

(٧) المهود : ج مهد : الأرض المستوية السهلة .

(٨) عفا الأرض : كثر نباتها فغطاها . وعفا الشيء : خفي وعفا الماء : لم يخالطه شيء يكدره .

أكفكما ، ولا كأضيع^(١) كنت يمينه
بكهانتك ! وأيم الله ! لأضعن منك
مارفعا ، ولأقلن منك ما كثرأ . رويدا
فكأن قد أصبحت سادما^(٢) تعض أناملك
نادما ، والسلام^(٣) » .

وكان جواب موسى لعبد الله : « أما
بعد . فقد قرأت كتابك وفهمت ما وصفت
فيه من إركاني إلى أبويك وعمك ، ولعمري
أنى كنت لذلك أهلا ! ولو خبرت منى
ما خبرا لما صغرت منى ما عظمأ ، ولما جهات
من أمرنا ما علما ، فكيف أتاه الله لك !!
فأما انتقاصك لهما ، منهما لك وأنت منهما
ولهما منك ناصر ، لو قال وجد عليك
مقالا ، وكفالك جزاء العاق^(٤) . فأما
تهددك إياى بأنك واضع منى ما وقعأ ،
فليس ذلك بيدك ولا إليك فأرعد وأبرق
لغيرى . وأما ما ذكرت مما كنت آتى
به عمك عبد العزيز ، فلعمري أنى مما
نسبتنى إليه من الكهانة لبعيد ، وأنى من
غيرها من العالم لقريب ، فعلى رسلك ،
فإنك قد أظلك البدر الطالع والسيف

القاطع والشهاب الساطع ، فقد تم لها وتمت
له ، ثم بحث إليك الأعرابى الحلف الخافى
فلم تشعر به حتى يحل بعصوتك^(٥) فيسابلك
سلطانك فلا يعود إليك ولا تعود إليه ،
فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم ، وتوقن أيانا
النادم السادم ، والسلام » .

وقرأ عبد الله كتاب موسى ، فكتب
إلى أبيه عبد الملك كتابا وأدرج كتاب موسى
فيه ، فلم يصل الكتاب إلى عبد الملك حتى
قبض ، ووقع الكتاب فى يد الوليد بن عبد
الملك بعد أن عزل عبد الله عن (مصر) ،
فلما قرأه استضحك ثم قال : « لله دره -
يقصد موسى - إن كان عنده أثره^(٦) من علم ،
ولقد كان عبد الله غنيا أن يتعرضه »^(٧) .

فإذا صح صدور هذا الكتاب عن
عبد الله ، فهو يدل على تمكنه من ناصية
اللغة العربية ، وبلاغته وبيان الرفيع ، كما
يدل على حبه للسيطرة واهتمامه بالضبط
والنظام فهو لا يرضى أن يتخطا موسى إلى
الخليفة ، لأنه يعتبر نفسه المرجع المباشر
لموسى .

(١) أضيع : ج ضيع ، وهو جنس من السباع من الفصيلة الضبعية ورتبة اللواحم ، أكبر من الكلب وأقوى
وهى كبيرة الرأس قوية الفككين ، وهذه تعرف بالسذاجة والغفلة .

(٢) السادم : المصاب بالهم أو الغيظ مع حزن .

(٣) الولاة والقضاة (٦٠ - ٦١) .

(٤) أضاف موسى بعد العاق : أما ما نلت من عرضى ، فذلك موجب لحق أمير المؤمنين لا لك » .

(٥) العقوة : الموضع المتسع أمام الدار أو الحلة أو حولهما .

(٦) الأثرة : المنزلة . وأثرة العلم : بقية منه تؤثر .

(٧) الولاة والقضاة (٦١ - ٦٢) .

والمهم أن عبد الله لم يكن على علاقة
حسنة بموسى بن نصير ، مما يؤدي إلى
عرقلة استكمال فتح (أفريقيا) وتوطيد
فتحها لتكون القاعدة الأمامية لفتح الأندلس
وأوربا ، كما تشل هذه العلاقة السيئة بين
عبد الله وموسى بن نصير التعاون الوثيق
بين القائدين وتلحق بالفتح أفدح الأضرار .

ولا يمكن أن يبقى قائدان في منطقتين
متجاورتين تؤثر إحداهما في الأخرى تأثيرا
سوقيا إلا إذا كانا متعاونين أشد التعاون ،
يتبادلان ثقة بثقة وحبًا بحب وإخلاصًا بإخلاص .

ويبدو أن صغر سن عبد الله وعنجهيته ، هي
التي جعلت موسى بن نصير — وهو القائد الأملعي
والخفيف لا يتعاون مع عبد الله تعاونًا وثيقًا
كما كان يتعاون مع عبد العزيز بن مروان
وغيره من أمراء (مصر) .

كما يبدو أن موسى استشف أخبار
العلاقة غير الوطيدة بين الأخوين : الوليد
وعبد الله ، وأن مكانته عند الوليد أقوى
من مكانة عبد الله ، وأن الوليد لا محالة سيعزل
عبد الله عن (مصر) اليوم أو غدا ، لذلك
لم يكثرث بعبد الله ولم يولته العناية الكافية .
وقد كانت ولاية عبد الله على (مصر)
ثلاث سنين وعشرة أشهر (١) .

وإخوة عبد الله بن عبد الملك : الوليد ، وسليمان
ومروان الأكبر مات صغيرا ، وعائشة ،
أهمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث
ابن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن
مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن
بغيض .

وزيد ، ومعاوية مات صغيرا ، وأم كلثوم ،
وأهمهم عاتكة بنت يزيد بن أبي سيفان .
وهشام ، وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل
بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي .
واسم أم هشام : عائشة بنت هشام المخزومية
وأبر بكر واسمه بكار ، أمه عائشة
بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله .

والحكم مات صغيرا ، وأمه أم أيوب بنت
عمرو بن عثمان بن عفان .

وفاطمة بنت عبد الملك ، وأمها أم
المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن
هشام بن المغيرة .

وعبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد
وسعيد الخير ، لأمهات أولاد (٣) .

ولا ذكر لأولاده ، وورد ذكر قسم من
أولاد عبد الملك بن مروان ، ولم يذكر قسم
آخر منهم ، إذ ليس في أعقاب سائر ولد
عبد الملك من اشتهر فيذكر .

(١) النجوم الزاهرة (١ - ٢١١) ، وفي الولاة والقضاة (٦٣) : أن ولايته كانت عشرة أشهر ، وهذا
بدون شك خطأ مطبعي أو خطأ من ناسخ الكتاب ، وكان على مهذه ومصححه (رفن كست) ألا يففل عن مثل هذا
الخطأ ، والكتاب بعد ذلك يعج بالأخطاء بشئ أنواعها ومختلف أشكالها مما يدعو إلى الأسف الشديد .

(٢) الطبرى (١/٣١٩ - ٤٢٠) وانظر جهرة أنساب العرب (٨٩) والنجوم الزاهرة (١ - ٢١١)

(٣) جهرة أنساب العرب (١٠٤) .

وقد تولى عبد الله (مصر) سنة خمس وثمانين (٧٠٤م) كما ذكرنا ، وكان عمره حينذاك سبعا وعشرين سنة^(١) ، ومعنى ذلك أنه ولد سنة ثمان وخمسين الهجرية (٦٧٧م) ، وقتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية^(٢) (٧٤٩م) ، أى أنه عاش أربعاً وسبعين سنة قمرية واثنين وسبعين سنة شمسية .

القائد

كان فى عبد الله شدة وبأس كما وصفه المؤرخون ، وهذا يدل على قوة شخصيته والتحدى بالضبط المتين .

والشخصية القوية من سمات القائد المتميز كما أن الضبط المتين من مزايا الجندي والقائد المتميزين ، إذ لا جيش يعتمد عليه وقوة يعتد بها إذا لم تتسم بالضبط المتين .

والفرق الرئيسى بين العسكريين والمدنيين ، هو تمتع الأولين بالضبط المتين ، وعدم تمتع الآخرين بهذا الضبط .

فإذا كان القائد منضبطاً ، سرت هذه السجية إلى رجاله ، وبذلك يحقق القائد لجيشه أول أسباب النصر .

ويبدو أن سفارة عبد الله إلى العراق لكبح جماح ثورة ابن الأشعث أو لإقرار

الصلح بين رجاله ورجال الحجاج ، وتصرفه فى قيامه بواجبه فى السفارة أولاً وتعاونهم مع الحجاج فى معركة (دير الحجاج) مما أدى إلى إحراز النصر ثانياً ، قيادته الواعية فى غزواته المتعاقبة بأرض الروم ثالثاً ، ومحاولته ترسيخ أقدام الفاتحين فى المناطق التى فتحها ليصبح الفتح مستداماً ولا يبقى فتحاً مؤقتاً أخيراً ، هو الذى لفت إليه نظر أبيه عبد الملك بن مروان ، فولاه (مصر) وأوكل إليه أمر إدارتها بأسلوب جديد غير الذى كان يتبعه فى إدارتها عبد العزيز بن مروان .

وأهمية (مصر) فى فتح المغرب وأفريقية ، كأهمية (العراق) فى فتح المشرق ، واعتماد فتح المغرب على خراج (مصر) ، كاعتماد فتح المشرق على خراج (العراق) ، لذلك كان اهتمام الخلفاء باختيار ولاية (مصر) و (العراق) فائقاً جداً ، لأن (مصر) القاعدة الأمامية الرئيسة فى فتح المغرب ، وشأنها فى ذلك شأن (العراق) ، ولا فتح بدون قاعدة رصينة وهذا يحتاج إلى ولاية قادرين من ذوى الكفايات العالية والإدارة الحازمة .

إن اختيار عبد الله من بين إخوته لولاية (مصر) ، دليل على نجاحه فى المهام الإدارية والقيادية التى أقيمت على عاتقه قبل أن يتولى هذا المنصب الحيوى الرفيع ، وهى

(١) النجوم الزاهرة (١ / ٢١٠)

(٢) تاريخ ابن خياط (٢ - ٤٣٥) .

التي رشحته لتولى هذه المهمة الجديدة الصعبة ، ورشحته لاقتلاع آثار سياسة

عبد العزيز بن مروان في (مصر) من جنورها ، تلك الجنور التي تغلغت إلى الأعماق ، لأن عبد العزيز حكم (مصر) عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً^(١) امتدت من سنة خمس وستين الهجرية^(٢) (٦٨٤ م) حتى خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) ، فأمر عبد الملك ابنه عبد الله أن يعنى أثر عبد العزيز في^(٣) (مصر) ، وهذه مهمة صعبة جداً ، ولا يستطيع تنفيذها غير الرجال القادرين .

وإذا علمنا أن عبد الله تولى (مصر) وعمره سبع وعشرون سنة ، وأنه بدأ حياته العملية قائداً وسفيراً سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) ، وكان عمره يومئذ أربعاً وعشرين سنة ، فمعنى ذلك أنه أظهر كفاية متميزة في سن مبكرة ، ثم قضى ثلاث سنوات لوضع كفايته في محك التجربة العملية ، فنجح في إحراز ثقة أبيه فولاه أكبر منصب مرموق بعد منصب الخليفة ، وهو ولاية (مصر) ، مما يدل على تمتعه بالطبع الموهوب

الذي أثبت نجاحه في ميدان التطبيق العملي .

ولا شك في أن عمله المكتسب كان له نصيب كبير في صقل طبعه الموهوب ، وفي تجربته العملية قائداً وسفيراً وإدارياً ، وبذلك اجتمعت لعبد الله الصفات الثلاث للقائد والسياسي والإداري : الطبع الموهوب ، والعلم المكتسب والتجربة العملية .

ولا يستطيع متابع سيرته قائداً ، إلا أن يتوقف أمام ميزة بارزة لقيادة عبد الله وهي محاولته جعل الفتح مستداماً ، ورفضه الاكتفاء بالفتح المؤقت الذي هو أشبه بالمعارك السيارة والغارات منه بالفتح المستدام .

لقد فتح المسلمون (المصيصة) بقيادة أبي عبيدة بن الجراح في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ولكن الروم استعادوها مرات ، وأعاد المسلمون فتحها ، مرات لذلك قرر عبد الملك بن مروان أن يحرم الروم من استعادتها ، لاهمية موقعها السوق ، حيث تعتبر الخط الدفاعي الأمامي عن (أنطاكية) أهم الثغور الشامية ، فإذا استعادها الروم أصبحت (أنطاكية)

(١) النجوم الزاهرة (١ - ١٧٤) والولاة والقضاة (٥٥) .

(٢) العبر (١ / ٧١) وشذرات الذهب (١ / ٧٣)

(٣) العبر (١ - ٩٩) وشذرات الذهب (١ - ٩٥) .

(٤) النجوم الزاهرة (١ - ٢١٠) والولاة والقضاة (٥٨) .

(٥) النجوم الزاهرة (١ - ٢١٠) .

(٦) تاريخ ابن خياط (١ - ٢٨٩) ومعجم البلدان (٣ - ٢٨٥) .

مكشوفة تحت رحمة الروم فيستعيدوها الروم
بيسر وسهولة .

وأمر عبد الملك ابنه عبد الله أن يعيد بناء
(المصيصة) ويعمر قلعتها ويحشد الخنود
فيها ، فينهض عبد الله بهذا الواجب على أحسن
وجه ، واختار من رجاله الشجعان وجعلهم
حامية ثابتة لهذا الثغر المتقدم الذي : يحمي
(أنطاكية) بخاصة ، والحدود الشمالية الغربية
للدولة بعامة (١) .

وذهب عبد الله إلى مدى أبعد من ذلك ،
فتغلغل شمالاً إلى (طرندة) لتكون خطأ
دفاعياً أمامياً للدفاع عن (المصيصة) ،
وبذلك أصبح خطان دفاعيان أماميان للدفاع
عن (أنطاكية) وعن حدود الدولة ، يصعب
على الروم اختراقهما للوصول إلى (أنطاكية)
وحدود الدولة الشمالية الغربية ، بهذا حمى
البلاد الإسلامية حماية مثالية من الروم
كما أمن قواعد متقدمة للفتح في بلاد الروم .

وقد ارتكز مساحمة بن عبد الملك على
(المصيصة) في انطلاقه شمالاً لحصار
(القسطنطينية) ، وكانت هذه المدينة من
أهم قواعد المتقدمة التي ارتكز عليها
لتحقيق أهدافه في الفتح .

وأخفقت حملة (القسطنطينية) وبدأ
المسلمون بالانسحاب منها ، فكانت (المصيصة)

أرصن قواعد المسلمين المتقدمة في حماية
الانسحاب .

ومات عبد الله ومات مسلمة بن عبد
الملك ، وانتهت أيام الدولة الأموية في
الشام ، وبدأت أيام الدولة العباسية في
(بغداد) ، وذكر (المصيصة) يتردد
في الصراع بين المسلمين والروم ، وبقيت
صخرة صلبة بوجه الروم ، فلم يستطيعوا
استعادتها إلى حكمهم كما لم يستطيعوا أن
يقللوا من أهميتها الحيوية في الدفاع عن
(أنطاكية) وحماية الحدود الشمالية الغربية
من هجمات الروم وغاراتهم .

والفضل في ذلك يعود إلى عبد الملك
ابن مروان صاحب فكرة تحصينها وحشد
المقاتلين فيها ، وإلى ابنه عبد الله الذي وضع
تلك الفكرة في حيز التنفيذ .

كما أن الفضل في جعل فتح هذا الثغر
فتحاً مستداماً ، يعود إلى عبد الله دون
مراء .

إن عبد الله في فتحه ، يفكر في الحاضر
وفي المستقبل ولا يكتفى بالتفكير في الحاضر
فقط ، وهذه صفة من صفات القائد
الذي يتسم ببعد النظر .

(١) انظر التفاصيل في البلاذري (٢٢٥) .

(٢) انظر التفاصيل في البلاذري (٣٢٣ - ٢٣٠) .

أى نوع من أنواع القضايا الإدارية تمويهاً ،
وسلاحاً ، ونقلية ، وطبابة ، ومرتبات .

وكان يديم معنويات رجاله العالية ،
بالنصر ، والأمن ، والحماية ، وحرمان العدو
من الحصول على المعلومات عن قواته ،
وبالحاميات القوية القادرة ، وبالتعرض
والقتال السيار ، ونقل المعركة إلى أرض
العدو ، وبالأستعدادات المتكاملة .

وكان يثق برجاله ويثقون به ، ويحبهم
ويحبونه ، ويعتمد عليهم ويعتمدون عليه .

والذى يبدو أن أهم مزاياه العسكرية
في القيادة هي بعد نظره الذى جعله ينفذ
الخطط الضرورية التى أدت إلى ترسيخ
ما فتحه من بلاد الروم ، فأصبح فتحاً
مستداماً ولم يبق فتحاً مؤقتاً .

كما أنه كان ذا شخصية نافذة مسيطرة
تفرض نفسها بقوة وصرامة على رجاله
وعلى أسلوب عملهم في القتال والإدارة
على حد سواء .

كما أنه كان يتحلى بالضبط المتين ، فلا
يغض الطرف عن مخالفات رجاله ولا يرضى
منهم بغير الالتزام الصارم بمتطلبات الضبط المتين .

تلك مزايا ثلاث بارزة في عبد الله ،
لفتت إليه نظر أبيه عبد الملك ، فولاه مصر
ليعيدها إلى سيطرة أبيه الكاملة ، فمخسرتة
القيادة ولم ترحه الإدارة .

وقد كان عبد الله قائداً تعرضياً ، يطبق الحرب
السيارة ، ويدافع عن الحدود والثغور بالتعرض
لا بالدفاع المستكن ، ويرى بحق أن الهجوم
أفضل أساليب الدفاع .

وبالأسلوب التعرضي ، حمى عبد الله
الحدود والثغور ، ونقل القتال من مواضع
المسلمين إلى مواضع الروم ، وجنب
بلاد المسلمين خسائر الحرب ، وأوقع
تلك الخسائر في بلاد الروم ، وفتح مناطق
من أرض الروم ، جعلت أرض المسلمين
بعيدة عن أسلحة الروم ورجالهم .

وكان يطبق مبدأ (التحشد) في غزواته
فيحشد القوة المناسبة للعمل المناسب ،
كما يحشد القوات المناسبة في الثغور ،
للدفاع عنها في حالة تعرضها لهجوم مضاد .

وكان يطبق مبدأ (الأمن) في مسير
الاقتراب ، وفي صفحة الاشتباك بالعدو ، كما
يضع للحاميات في الثغور ، لكى لا يباغتها
العدو في هجوم غير متسوق ،
وبهذه التدابير الأمنية صان رجاله من
مباغته العدو لهم في مختلف صفحات القتال
التي خاضها .

وكان يطبق مبدأ (القضايا الإدارية)
تطبيقاً مثالياً في غزواته ، ابتداء من تقدمه
لمجاهة العدو ، إلى عودته إلى قواعد
المسلمين ، فلا نعلم أن قواته احتاجت إلى

عبد الله في التاريخ

يذكر التاريخ لعبد الله أنه فتح منطقة حيوية من بلاد الروم بقيت رديحاً من الزمن تنتقل من أيدي الروم إلى أيدي المسلمين ، ومن أيدي المسلمين إلى أيدي الروم ، حتى استقرت أخيراً بأيدي المسلمين بفضل عبد الله ، وأصبح فتحها فتحاً مستداماً .

ويذكر له أنه حمى بفتحه المستدام منطقة (أنطاكية) ، وهي من أهم الثغور الشامية

التي تحرس الحدود الشمالية الغربية للدولة الإسلامية .

ويذكر أنه تولى (مصر) فأعادها إلى سيطرة أبيه الكاملة ، بعد أن كانت شبه مستقلة في أيام عبد العزيز بن مروان .

ويذكر أنه نجح نجاحاً باهراً في قيادته ونجح نجاحاً محدوداً في إدارته . فكان قائداً متميزاً ، ولم يكن إدارياً متميزاً .

يرحمه الله جزاء ما قدم من جهد في قيادته وإدارته .

محمود شيت خطاب

عضو المجمع المراسل من العراق

